مواقف سياسية
لأبي الثناء محمود الآلوسي
١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ — ١٨٥٥ م / ١٢٧٠

للدكتور عبد العزيز سليمان نوار

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس

كان عراق العباسيين مركز الزعامة في السياسة والأدب ، ثم فقدت بغداد تلك الزعامة في أعقاب نكبة المغول لها ولعلمائها . ولم تستطع دمشق أو القاهرة أن تتسلم تلك الزعامة من بغداد حيث أن الآداب العربية كانت تتدهور فيها كذلك . واستمر هذا الركود خلال العهد العثماني حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، ذلك القرن الذى يمكن أن نطلق عليه « قرن الحركة » حيث بدأت خلاله تطورات ثقافية وسياسية هامة في الوطن العربي ، وهو أيضاً قرن استطاعت أثناءه العصبيات والأسرات المحلية أن تستبد بالحكم في معظم ولايات الدولة العثمانية . وقد ظهرت في العراق عصبية المماليك التى حكمته من ١٧٤٩ إلى ١٨٣١ م .

عاش العراق تحت الحكم المملوكى فترة قلقة مليئة بالثورات العشائرية وبالأوبئة والفيضانات المخربة والغزوات الفارسية . ولكن منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر هبت على العراق رياح التغيير والتطور ، حيث وصلت إليه بعض التيارات التى اجتاحت منطقة الشرق الأدني في أعقاب نزول الحملة الفرنسية في مصر ، وبعد انتشار الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية ، حتى لقد اعتنق سليمان باشا الصغير — الذى حكم العراق بين ١٨٠٧ و ١٨١٠ — الفكرة الوهابية . هذا فضلاً عن أنه كان قد حصل على منصب باشوية بغداد بفضل وساطة المسيو سباستياني Sebastiani السفير الفرنسى المشهور لدى

الباب العالى[١] . وبدا واضحاً أن العراق بدأ يدخل في مجال السياسات الدولية . ولقد أصبح العراق ذا أهمية دولية خلال عهد الوالى داود باشا آخر ولاة المماليك الذى حكم من ١٨١٧ إلى ١٨٣١ . فلقد حاول الرجل أن يوّحد العراق بمختلف ولاياته تحت حكمه[٢] . وأن يقتبس من حضارة الغرب ما يستطيع به أن يدعم قوى العراق الإقتصادية والعسكرية[٣] . ولكن صادف ذلك الوقت اتجاه السلطان العثماني نحو القضاء على العصبيات المحلية الحاكمة على اعتبار أنها من عوامل تدهور الدولة العثمانية ، وأن إعادة الحكم المركزى إلى مختلف ولايات الدولة كفيل بخلق إمبراطورية عثمانية متماسكة قادرة على الوقوف في وجه الإمبراطوريات الكبرى الأوربية الإستعمارية الطامعة في الدولة العثمانية . فشن السلطان العثماني حملة كبيرة على العراق ١٨٣٠ — ١٨٣١ بقيادة على باشا رضا فاستولى عليه وأعاد إليه الحكم المركزى العثمانى الذى استمر حتى ١٩١٧

وكان للأدباء في عصر بعض الوزراء المماليك دولة . ويعتبر عهد داود باشا ذروة ما بلغه العراق من تطور أدبي في عهد المماليك . وكان هذا التطور في ذلك العهد منطلقاً لتقدم أدبي كبير خلال القرن التاسع عشر ، بدأه أبو الثناء الآلوسى وعبد الغفار الأخرس وصالح التميمى وغيرهم من أدباء ذلك العهد . وكانت رعاية مماليك العراق للآداب العربية ترجع إلى عوامل عديدة . فلا شك أن اللغة العربية والإسلام هما اللذين أخذا بيد هؤلاء المماليك عندما كانوا مجرد عبيد أرقاء في بيوتات بغداد الكبرى . ولما تولى المماليك الحكم — وكان احتكاراً لهم منذ منتصف القرن الثامن عشر — عنوا باللغة العربية وآدابها وبالعلوم الدينية

---

(١) عبد العزيز نوار : داود والى بغداد (١٨١٦ — ١٨٣١) . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٩٦٨ الفصل الأول .

(٢) كان العراق مقسما الى ولايتين هما بغداد والموصل ، وكانت البصرة تابعة لبغداد أما العشائر والمدن الكردية فكانت تحت حكم أسرات حاكمة تحت نفوذ والى بغداد .

(٣) ع. نوار : داود باشا : الفصل السابع والثامن .

وبالشيوخ والعلماء ، فقربوهم إليهم ، وعقدوا لهم المجالس الأدبية ، وأنشأوا العديد من المدارس ، وأعدوا المكتبات لطلاب العلم[١] .

ولقد كان الحكام المماليك في حاجة إلى كسب صداقة وود العلماء والأدباء لأن المماليك كانوا يفرضون أنفسهم في حكم العراق على غير رغبة من السلطان العثماني وبابه العالى وفي وجه معارضة قوية من بعض الزعماء العرب والأكراد . هذا إلى جانب ما كان يوجهه المماليك من تمردات داخلية خطيرة تهدف إلى إبعادهم عن الحكم . فأملت هذه الظروف عليهم أن يكسبوا إلى جانبهم العلماء والأدباء ، خاصة وان حكومة المماليك كانت في طريق التحول نحو حكومة محلية عراقية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر . وجاء هذا التحول في وقت نمت فيه الحركة الفكرية . ولقد فطن الحكام المماليك إلى ذلك ، وبخاصة داود باشا ، ولهذا نجده يحيط البراعم الأدبية الناشئة برعايته ، فأعان على بزوغ نجم كل من أبي الثناء محمود الآلوسى (مفسر العراق) ، وعبد الغفار الأخرس (شاعره الأول)[٢] .

وظهرت في أيام داود باشا حركة أدبية كبيرة ، فقد كانت مجالس الأدب والأدباء متعددة ، وتعيد لنا المساجلات والمطارحات الشعرية حينذاك ذكرى ما كان بين جرير والفرزدق . وكانت الأبيات القيمة — بمقياس ذلك العصر — تطير من مجلس إلى مجلس ، كما كانت القصيدة الممتازة لا يتناقلها الناس فحسب بل كان الأدباء يتسابقون إلى شرحها أو تشطيرها أو تخميسها ، فيذيع صيتها ويرتقى خلال هذا وذاك الإنتاج الأدبي العربي[٣] .

ومما زاد من نمو الفكر الأدبي العربي في العراق في ذلك الوقت أن العراق قد أخذ يشق طريقه إلى المجالات الدولية منذ أن استعاد طريق العراق بين

---

(١) هم فى ذلك يتشبهون بخلفاء بغداد العظام . وقد كانت لبغداد قوة روحية طاغية تدفع حكامها الى العمل على استعادة مجدها ما استطاعو الى ذلك سبيلا .

(٢) انظر عبد العزيز نوار : داود باشا . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٩٦٨ الفصل الثامن ..

(٣) أكب بعض العلمـاء على الأشعار والأعمال الأدبيـة فظهرت عدة دواوين وجدت طريقها الى المطابع المصرية ، ومن ذلك ديوان عبد الباقى العمرى المسمى « الترياق الفاروقى » .

الشرق والغرب بعض أهميته في العشرينات من القرن التاسع عشر ، خاصة عندما ازدادت أهمية العراق الدولية مع بداية التوسع المصرى في الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) ، وظهور المشروعات الملاحية البخارية الإنجليزية في أنهار العراق متمثلة في « بعثة الفرات » بقيادة فرانسيس راودن جسنى F. Rowden Chesney التى مهدت لجعل العراق قاعدة إنجليزية ضد التوسع المصرى في الشام وفي شبه الجزيرة العربية[١] .

إن مثل هذه الأحداث الكبرى كفيلة بأن تشحذ الأذهان وتطلق طاقات أدباء العراق وعلمائه ، وفعلاً ظهر عدد من الشعراء ملأوا الأسماع ببعض روائعهم ، حقيقة كان الشاعر عبد الغفار الأخرس يتكسب بشعره مادحاً الولاة والأثرياء[٢] . ولكن في نفس الوقت ظهرت اتجاهات وطنية في شعره وكذلك في نثر محمود الآلوسى . ويجدر بنا قبل أن نتعرض لهذه الإتجاهات الوطنية أن نلقى نظرة سريعة على نشأة وتاريخ حياة محمود الآلوسى الذى اشتهر بأبي الثناء .

ولد أبو الثناء محمود الآلوسى في ١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ ، وهو ينتسب إلى الشجرة النبوية الكريمة [٣] ، ومن بيت علم حيث كان أبوه من مدرسى بغداد المعروفين ، وقد تلتى على يديه الكثير من علوم الدين واللغة والأدب[٤]

---

(١) منذ أواخر العشرنيات من القـــرن التاسع عشر كان الانجليز يفاضلون بين طريقى البحر الأحمر ونهر الفرات من حيث استخدام البواخر فى أى منهما لانشاء خطوط ملاحية سريعة بين الشرق الأقصى وأوربا لتحل محل طريق رأس الرجاء الصالح الذى لم يعد قادرا على مواجهة متطلبات الانقلاب الصناعى الكبير فى انجلترا وأوربا من حيث سرعة نقل كميات هائلة من البضائع الى الشرق الأقصى بأرخص الأثمان ، وعندما استولت القوات المصرية على الشام وجد الانجليز أن من الخير لهم الاسراع فى تنفيذ مشروع خط بواخر الفرات لربط الشرق بالغرب بواسطته ، ولتمهيد الطريق أمام ارسال بواخر مسلحة الى العراق تكون قادرة على منع أى اتجاه عراقى نحو مصر أو اتجاه مصرى نحو العراق . انظر عبد العزيز نوار : المصالح البريطانية فى أنهار العراق . مكتبة الأنجلو القاهرة ١٩٦٨

(٢) انظر ديوانه « الطراز الأنفس » استانبول ١٣٠٤ هـ .

(٣) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود . جـ ١ : ورقة ١٤

(٤) محمود الآلوسى : غرائب الاغتراب ونزهة الألباب . بغداد ١٣٢٧ هـ ص ٥ — ٧

وقد تلقى العلم كذلك على عدد من المدرسين والعلماء ، وتحدث عن بعض هؤلاء حديثاً كشف لنا عن المتاعب التي كان يعاني منها طلاب العلم على يد المدرسين حينذاك ، فبعضهم كان يقول مالا يفهم ، ورغم هذا كان يسعى إلى أعلى المراتب ، وبيّن لنا كذلك كيف أن بعض علماء ومدرسي بغداد كان يستجدى بعلمه . ولكن كانت حرية الطالب في أن ينتقل من عالم إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى تخفف من حدة مثل هذه المشكلات[١] .

وكان من بين العلماء الذين درس عليهم أبو الثناء الآلوسي من لعب أدواراً خطيرة في تاريخ العراق . ونقصد بذلك الشيخ خالد النقشبندى ، وعلى أفندى السويدى . وكان الأول شيخ الطريقة النقشبندية ، وكان يسعى إلى تصفية الأحقاد بين الزعماء الأكراد وإلى توجيه قلوب الناس نحو حياة دينية أفضل . ولقد استطاع أن يكوّن لنفسه جماعة كبيرة من المريدين على مختلف المستويات . ويبدو أن السلطات العثمانية خشيت من النمو المطرد لعدد مريدى الشيخ خالد النقشبندى فعملت على مطاردته وتشريده[٢] .

أما على السويدى فكان مدبر أمر الوزير سليمان باشا الصغير الذى حكم العراق من ١٨٠٧ حتى ١٨١٠ ، وقد قام هذا الوزير بتمرد كبير ضد السلطان العثماني بتحريض من على أفندى السويدى وكانت خطورة هذه الحركة تكمن في أن على السويدى هذا كان ذا اتجاهات سلفية قوية ثورية ، حتى لقد قيل عنه أنه كان وهابياً ، وأنه استطاع أن يقنع الوزير سليمان الصغير بالفكرة الوهابية[٣] .

ولا شك أن تلقى محمود الآلوسي العلم على يد أمثال هؤلاء العلماء كان له تأثير كبير في التكوين السياسى لأبي الثناء الآلوسي . بل يمكن القول أن اتجاهات أبي الثناء الآلوسي السياسية امتداداً لاتجاهات بعض أساتذته[٤] .

---

(١) المرجع نفسه : ص ٦ ، ٩

(٢) غرائب الاغتراب : ص ١٧ — ١٨ ، كلاوديوس ج. ريچ : رحلة ريچ فى العراق ١٨٢٠ . ترجمة بهاء الدين نورى . بغداد ١٩٥١ ص : ٢٢٧ — ٢٢٨

(٣) جودت : تاريخ جودت . استانبول ١٢٩١ هـ . جـ ٨ : ص ٤٣ — ٤٤ ، ١٧٠ ، غرائب الاغتراب : ص ١٦

(٤) الملاحظ أن أبا الثناء الآلوسى لم يقتصر فى تحصيله العلم والمعرفة=

وبعد أن حصّل أبو الثناء من العلم والمعرفة مقداراً مناسباً ، فتح له أبوه مجال العمل بأن جعله محافظ كتب مدرسة الشهيد على باشا التى كان يقوم والده بالتدريس فيها . ولا شك أن الفترة التى قضاها أبو الثناء أميناً لمكتبة تلك المدرسة كانت فترة إعداد أخرى له فتحت له آفاقاً جديدة ومنحته فرصة واسعة للإستزادة من مختلف نواحى العلوم . وبعد ذلك بوقت قصير عينه داود باشا مدرساً في مدرسة الحاج أمين الباجهجى . فكان ذلك بداية لظهور أبي الثناء الآلوسى[١] .

وبمرور الوقت توثقت الصلة بين أبي الثناء الألوسى وداود باشا والى بغداد ، ولكن جاءت هذه الروابط الوطيدة بين الرجلين في وقت كان فيه السلطان العثماني محمود الثاني يعد حملة كبيرة لطرد داود من بغداد وللقضاء قضاء تاماً على المماليك . وفعلاً جرد السلطان العثماني جيشاً بقيادة « على رضا باشا » لتنفيذ تلك الأهداف . فاستعد داود باشا بجيشه المدرب لمقاومة جيش على رضا ، ووقف أبو الثناء الآلوسى إلى جانب داود في هذه الأزمة[٢] .

أن وقفة أبي الثناء الآلوسى هذه إلى جانب داود باشا الثائر على السلطان والخارج على طاعة خليفة المسلمين لاتعنى أن تلك الثورة كانت من أجل فصل العراق عن دولة الخلافة العثمانية . فتلك كانت وجهة نظر السلطان وبابه العالى في ثورة داود باشا . أما داود نفسه ومن معه من المماليك والعلماء من أمثال أبي الثناء الآلوسى فكانوا يرون أن داود هو الأكفأ لحكم العراق من غيره من « ولاة الخارج » الذين كان يبعث بهم السلطان العثماني لحكم ولايات الدولة العثمانية حكماً مركزياً . فالمماليك — من وجهة نظر أبي الثناء الآلوسى — أحق من غيرهم في حكم البلاد لأنهم كانوا يعيشون

=على مدرسى وعلماء بغداد فقط بل اتصل بعدد من كبار شيوخ وعلماء الشام فحصل على اجازة من الشيخ عبد الرحمن الكزبرى مفتى دمشق ، وكان الحصول على اجازة من هذا العالم الجليل أمر يفتخر به علماء ذلك العهد . انظر محمود الآلوسى : غرائب الاغتراب : ص ١٩

(١) المصدر نفسه : ص ٢١

(٢) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود . جـ ١ : ورقة ١٢

بين أهل العراق وعلمائه ، ويعرفون أساليب حكم هذه البلاد ، بعكس الحال بالنسبة « لولاة الخارج » — من أمثال « على رضا » — الذين كانوا يفدون إلى العراق دون سابق معرفة به أو بأهله ، فلا يراعون مكانة علمائه ولا يدبرون أموره بمشورتهم. ولهذا « أبي » على حد تعبير مترجم حياة أبي الثناء الآلوسى « أن يطيعه جميع من في العراق وقامت الحرب فيما بين الطرفين . » ،[١] علما بأنهم في نفس الوقت كانوا يعلنون الطاعة للسلطان العثماني وأنهم يدافعون فقط عن العراق ضد جيش على باشا رضا[٢] .

وأغلب الظن أن أبا الثناء الآلوسى وغيره من علماء العراق كانوا يعتقدون أن جيش المماليك — وكان قد أعدّ إعداداً حديثا ـ قادر على رد هجوم جيش على رضا . وكانت كل المقدمات توحى بأن داود سيخرج من المعركة المنتظرة منتصراً . ولكن حدث أن تفشى الطاعون في جيش داود فأباد غالبيته العظمى ، ثم انقض نهر دجله بفيضانه على بغداد ، فكان أن أجهز على المدينة ، ولم يجد داود من وسيلة أمامه سوى الاستسلام ، ودخل « على رضا باشا » في أعقاب ذلك المدينة ودبّر مذبحة مروعة لمماليك بغداد فقضى عليهم قضاء مبرماً[٣] .

كان طبيعياً أن يتوقع أبو الثناء الآلوسى عقاباً صارماً على يد الباشا المنتصر على رضا ، خاصة وأن منافسى وخصوم أبي الثناء كانوا قد وشوا به إلى الباشا الجديد « وأغلظوا قلب الوزير عليه »[٤] ، ولهذا اختفى أبو الثناء الألوسى عن الأنظار حتى تهدأ الأمور .« فجاور مختفياً في محلة الشيخ عبد القادر الكيلاني[٥] وظل على هذا الحال حتى عاد من الشام « عبد الغنى جميل[٦] » الذى كان من كبار رجالات بغداد والذى تولى منصب الإفتاء . وكانت تربطه بأبي الثناء الآلوسى أوثق الروابط ، ولذلك عزم أبو الثناء الآلوسى

---

(١) المصدر السابق : ورقة ١٢

(٢) سليمان فائق : تاريخ بغداد . مطبعة المعارف . بغداد — ١٩٦٢ ص ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٠

(٣) المصدر السابق : ص ١١٤

(٤) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود . جـ ١ : ورقة ١٢

(٥) المصدر نفسه .

(٦) كان عبد الغنى جميل قد غادر العراق الى الشام ليتجنب ويلات الحرب بين داود وعلى رضا وليتجنب كذلك أخطار الطاعون والفيضان .

على أن يلجأ إلى حماه ، ليدفع عنه انتقام على باشا رضا ، وليسعى في العفو عنه .

أقام أبو الثناء في بيت عبد الغنى جميل فترة من الزمان ، واستطاع بمعاونته أن يخرج مرة أخرى إلى مجالات الحياة العامة . ولكن الظروف قاسية ، والتقلبات كانت سريعة ، فلا يكاد أبو الثناء يجد طريقه إلى الحياة العامة حتى وقعت في بغداد ثورة كبيرة « ضد على باشا رضا » تزعمها عبد الغنى جميل مفتى بغداد . وكان السبب المباشر لتلك الثورة هو القسوة البالغة التى كان يعامل بها رجال « على رضا » نساء بغداد ، حيث كانوا يعذبوهن لإرغامهن على إبراز مالديهن من أموال مخبأة[١] . والواقع أن تعذيب النسوة لمن الأمور التى لاتقرها شهامة أى رجل ، فكان طبيعياً أن تثير مثل هذه الاعتداءات غير الإنسانية ثائرة مفتى بغداد عبد الغنى جميل لما عرف عنه من روح عربية أصيلة . ولكن كانت هناك أسباب أخرى هامة ساعدت على نشوب ثورة بغداد (١٨٣٢) ، ومنها أن انتقال الحكم من أيدى المماليك إلى أيدى الأتراك العثمانيين كان دموياً ، وبينما كان الناس يتوقعون من الحكم التركى الجديد أن يقدم الإعانات والإسعافات للمدينة المنكوبة إذا بهم يرون رجال الوالى الجديد يعملون على سلب كل قرش من جيوب أهل المدينة وبشكل وحشى .

ومما ساعد على نشوب ثورة بغداد أن السلطات المصرية بعثت برسائل إلى أهالى كبريات المدن العراقية تحثهم فيها على أن يأخذوا جانب القضية المصرية ضد السلطان العثماني[٢]. ففى ١٨٣١ بدأت القوات المصرية زحفها إلى الشام وأحرزت عدة انتصارات كبيرة خلال ١٨٣١ ، ١٨٣٢ وعلى رأسها سقوط عكا في يد القوات المصرية .

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين . بغداد ١٩٥٥ : جـ ٧ : ص ١٥

(٢) Intelligence from Bagded Contained in Report from Wood, August 2, 1832, F. O. 78/210.

والواقع ، لم تكن بغداد هى الثائرة وحدها ضد « على باشا رضا » ، فلقد ألهب سقوط عكا حماس كثير من القوى الوطنية العراقية للعمل ضد الأتراك العثمانيين ،(١) فلقد أعلنت الموصل انضمامها إلى المصريين(٢) ، وظهر في البصرة حزب عربي قوى يعمل ضد على رضا (٣)، وأعلن صنوق - شيخ عشائر شمر الجربا التى كانت أقوى عشائر العراق البدوية - انضمامها إلى جانب الثوار في بغداد ، وكان مستعداً للتعاون مع القوات المصرية إلى حدود بعيدة(٤) . كما قيل أن أمير راوندور « محمد باشا ميركور » - الذى كاد أن يسيطر على معظم كردستان - كان مستعداً للهبوط على بغداد متعاوناً مع القيادة المصرية في الشام(٥). وهكذا كان عام ١٨٣٢ أخطر عام مر بالوالى الجديد « على باشا رضا » حيث أن معظم العراق بدا وكأنه قد خرج عن طاعته ولكن الرجل كان — رغم كل هذا — قادراً على مواجهة تلك الأزمات الطاحنة . فقد ركز جهده أولاً في إخماد ثورة بغداد حتى يتفرغ لبقية القوى المناهضة له . ولقد استطاع فعلاً أن يخمد الثورة فيها بعد أن أصلاها بوابل من قنابل مدافعه . واضطر عبد الغنى جميل في نهاية الأمر إلى أن يغادر العراق(٦)

كان الدور الذى لعبه أبو الثناء الآلوسى خلال تلك الثورة خطيراً ، حيث أنه تزعم ثورة الكرخ ، فلما باءت الثورة بالفشل أضحى مركزه غاية في

---

(١) Taylor to Political Department July 25, 1832 No. 55.
(India Office Records, Factory Records, Persia and Pessian Gul. vol. 49. pp. 207).

(٢) محفظة ٢١٣ عابدين وثيقة ٢٣٩ فى ٩ جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ — ٤ أكتوبر ١٨٣٢

Taylor to Secret Committe. August 15, 1832 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gul. vol. 49 pp. 212.

(٣) Ibid., Vol. 49 pp. 207, 253, 303-305.

(٤) محفظة ٢٣٩ عابدين وثيقة ٩ فى جمادى الأولى ١٢٤٨هـ — ٤ اكتوبر ١٨٣٢ م .

Taylor to Secret Committee. October 26, 1833 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf. vol. 49, pp. 785-792) ; Taylor to Political Department. July 22, 1835. (Ibid. p. 541-543).

(٥) على سيدو الكورانى : من عمان الى العمادية . أو جولة فى كردستان الجنوبية . مطبعة السعادة . القاهرة ١٩٣٩ : ص ١٣٢ — ١٣٣

(٦) Intelligence from Bagdad Contained in Report from Wood. August 2, 1832. F. O. 78/210.

وانظر عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : جـ ٧ : ص ١٤—١٥

الحروجة ، حيث نسب إليه أعداؤه « ما هو أعظم من الأول »[١] حتى لقد قيل أن الوزير « عزم على قتله[٢] » . وظل أبو الثناء مدة ليست بالقصيرة تحت سيف الانتقام حتى شفع له عدد من شيوخ الطريقة النقشبندية لدى « على باشا رضا » فقبل شفاعتهم ، والملاحظ بصفة عامة أن « على رضا » كان خفيف الوطأة على العلماء والأدباء الذين ثاروا عليه ، وكان يبذل جهده من أجل استرضائهم وجمعهم حوله ، وكسب تأييدهم له : فلقد كان « على رضا » في حاجة ماسة إلى تأييد هؤلاء العلماء والأدباء لمواجهة الأزمات الداخلية المتتالية وللصمود أمام تيار الانتصارات المصرية القوية التى هزت ثقة الناس في جيوش السلطان العثماني . وهذا يفسر لنا عدم مطاردته لأبي الثناء إلا لفترة قصيرة عاد بعدها إلى مجالات الحياة العادية . واستطاع بذلك أن يصبح واعظاً في « الحضرة القادرية »

وفي ليلة من ليالى شهر رمضان ، كان أبو الثناء الآلوسى يقوم بالوعظ في « الحضرة القادرية » وتصادف أن جاءها الوزير على رضا باشا واستمع إليه فشغف بوعظه ، وأسف على ما أصاب الرجل من اضطهادات ، « فوصله بعطيته وبجائزة سنية . . . . وارجع إليه جميع وظائفه . . . وأمره ألا ينقطع عن حضرته العلية . . . . وأن يشرح البرهان في طاعة السلطان »[٣].

لقد قدّر « على رضا » قيمة أبي الثناء الآلوسى في خدمة مصالح السلطان العثماني في تلك الظروف الحرجة التى تحتاج إلى رجل علم يستطيع أن يثبّت قلوب الناس على الولاء للسلطان . وقرّ رأى على رضا على أن يستغل علم وذكاء أبي الثناء الآلوسى في تنفيذ أهدافه في العراق وخارج العراق ، وخاصة في مقاومة تيار التوسع المصرى . ولا شك أن تكليف « على رضا » لأبي الثناء الآلوسى « بشرح البرهان في طاعة السلطان » في تلك الظروف كان جزءاً

---

(١) عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود : ج ١ : ورقة ١٣
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه : ج ١ : ورقة ١٢

من مخطط عام وضعه « على رضا » لجعل العراق قاعدة فكرية وعسكرية تعمل ضد التوسع المصرى في المشرق العربي (١) .

والملاحظ أن أبا الثناء الآلوسى لم يقم فقط بشرح البرهان في طاعة السلطان بل تولى كذلك تحرير رسائل تدعو الشريف محمد بن عون — حاكم مكة المكرمة — إلى نصرة الدولة العلية العثمانية ضد مصر(٢) . كما شن أبو الثناء هجوماً شديداً على « محمد على » والى مصر بسبب ما أقدم عليه الأخير من استيلاء بالقوة على ولايات الشام التابعة للسلطان(٣) ومن إعْمال السيف في جيوش الدولة . وهنا يقول أبو الثناء الآلوسى ، إن للسلطان في مثل هذه الظروف أن يترك قتال الكفار والجهاد في سبيل الله إلى إخماد تلك الفتنة على أساس أن بعض العلماء يرى « أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار (٤) » .

وهنا نلاحظ أن أبا الثناء الذى أيّد ثورة داود المسلحة ضد جيش السلطان وثورة عبد الغنى جميل ضد على باشا رضا يقف موقف العداء الشديد من حركة محمد على باشا ، تلك الحركة التى وصفها أبو الثناء الآلوسى بأنها بمثابة « الفصل بين الشجر ولحائه . »(٥) هذا مع العلم بأن الفارق الزمنى بين ثورة داود باشا وثورة محمد على باشا لايزيد على العام الواحد . فما هو السر وراء اختلاف موقف أبي الثناء من كل من الثورتين ؟

الواقع أن أبا الثناء الآلوسى حين وقف إلى جانب داود كان ذلك لأنه كان يدافع عن قضية واضحة أمامه ويؤمن بعدالتها ، وكان داود من ناحية أخرى يقف موقف المدافع إزاء هجوم جيش السلطان عليه ، أما محمد على فكان هو الذى هاجم ولايات الشام . هذا إلى أن أهداف حكومة مصر في أن تتوسع في الشام وشبه الجزيرة العربية لم تكن واضحة في أذهان أهل

---

(١) تجدر الاشارة هنا الى أن الانجليز فى نفس الوقت كانوا يفكرون فى نفس الاتجاه وهو جعل العراق قوة معاكسة للحركة المصرية انظر :
Canning to Campbell : August 2, 1832. No. 60.
Enclosure of a letter from Canning to Palmerston F. O. 78/211.

(٢) حديقة الورود : جـ ٢ : ص ١٧١
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق : جـ ٢ : ص ١٧١ — ١٧٢
(٥) المصدر السابق .

العراق إن لم تكن مشوشة . ثم إن خبرات أبي الثناء خلال الفترة القصيرة التي سبقت الزحف المصرى على الشام كانت معظمها تؤكد أن جيش السلطان هو الذى ينتصر في النهاية ، فلقد رأى بعينى رأسه كيف تلاشى جيش داود في أيام معدودات (١٨٣١) ، وكيف انهالت القنابل على بغداد عندما ثارت (١٨٣٢) وخرج من كل هذا أن جيش السلطان العثماني وخليفة المسلمين لاشك هو المنتصر على جيش مصر إن آجلاً أو عاجلاً .

لقد أدى هذا التفاهم الكبير بين أبي الثناء الآلوسى وعلى باشا رضا إلى أن يخدم كل منهما الآخر خدمات جليلة . فبينما كان الآلوسى قد جنّد قلمه وعلمه لخدمة مصالح السلطان العثماني كان على رضا يمنحه المراتب والمناصب بسخاء . فقد ولاه على رضا أوقاف مدرسة مرجان ، وهى مشروطة لأعلم أهل بغداد ، وجلب له رتبة (تدريس الآستانه) من السلطان ، ثم نصبه مفتياً للحنفية[١] . (١٢٤٩ هـ — ١٨٣٣) .

ويجب أن نؤكد هنا أن تفوق أبي الثناء الألوسى في مجالات العلوم الدينية هو الذى رفع مكانته بين جماعات العلماء من أقرانه ، وكان قيامه بتفسير القرآن الكريم من العوامل الرئيسية التي أسهمت في ارتفاع نجمه . وكان خلال قيامه بتفسير القرآن الكريم — الذى عرف باسم « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني[٢] » يبعث بكل جزء ينتهى منه إلى السلطان العثماني ، فكان يحصل هو من وراء ذلك على تقدير السلطان ومكافأته له ، وحصل من وراء ذلك على نيشان ، كل أول نيشان منحه السلطان العثماني لعربي من العراق . كذلك منحه السلطان قضاء أزمير[٣] .

ثم حدث أن وردت إلى أبي الثناء الآلوسى بعض الأسئلة الدينية العويصة التي كتبها بعض علماء إيران من الشيعة . وكان في إيران حينذاك اتجاه عام

---

(١) محمد بهجت الأثرى : اعلام العراق . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٥ هـ : ص ٢٣
وانظر كذلك حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ١٥

(٢) طبع في القاهرة مرتين وهو في عدة أجزاء من كتب التفسير الهامة .

(٣) حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ٧٦ ؛ غرائب الاغتراب : ص ٢٤

بأن العراق بعد نكبات الحرب والفيضان والطاعون والثورة أضحى خلواً من العلماء والمدرسين والشيوخ . ولكى يتأكد علماء إيران من حقيقة الوضع في العراق بعثوا بأسئلة دينية عويصة لامتحان علماء العراق بها لمعرفة مدى جهدهم وعلمهم . وعرض أبو الثناء الآلوسى هذه الأسئلة على علماء بغداد فلم يستطع واحد منهم أن يقوم بالرد عليها رداً حاسماً ، فتصدى لها أبو الثناء الآلوسى وبعث إلى علماء إيران بردود مفحمة ، لقيت استحسان أهل العراق، والسلطات العثمانية الحاكمة في بغداد وفي الآستانة[١] .

ومع أن رده أفحم علماء الشيعة في إيران فإن علاقاته مع علماء الشيعة في العراق كانت وطيدة وقوية ، ومن ذلك أن العالم الشيعى المعروف كاظم الرشتى كان من أصدق أصدقائه . وكان كاظم الرشتى يؤسس حينذاك فرقة جديدة شيعية عرفت باسم (الكشفية) ، وقيل عنه أنه كان يتوقع ظهور المهدى « المنتظر» ، ويبدوأن اتباع الحركة البابية انتهزوا هذه التوقعات التى كانت لدى كاظم الرشتى وأتباعه من الكشفية ، وصرحوا بأن كاظم الرشتى هو الذى بشر بقرب ظهور « الباب» على محمد[٢] . ومن ناحية أخرى كان محمود الآلوسى معتدلاً عند التعرض للاتجاهات الشيعية ، بل كان يبدى تعاطفاً واضحاً نحو الأئمة الإثنى عشر وهذا واضح في شرحه لقصيدة عبد الباقي العمرى التى عرفت باسم « الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب ».

ولقد كان طابع الاعتدال من صفاته عندما يتعرض للمذاهب والأديان ، ففى الوقت الذى كان فيه عطوفاً على أفكار الشيعة الإمامية ، كان متمسكاً

---

(١) حديقة الورود : جـ ١ : ورقة ٤٦

(٢) مؤسس الحركة البابية ، وعن كاظم الرشتى والكشفية انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ص ٦٥ — ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ — ٧٥ . وقد توفى كاظم الرشتى فى ١٢٥٩ هـ — ١٨٤٤ وانظر عنه فى :

J. Lorimen : Gazetteer of the Persian Gulf. Superintendent Government Printing India. 1915. Vol. I, Part I, pp. 1349-1351. Extract of a letter to Her Majeaty's Envoy at Tehran. Bagdad. January 17, 1843. (India Office Records, Political and Secret Department Records, letters from Agent at Bagdad. Vol. 13, pp. 127-128).

بأفكار سلفية واضحة . ولكنها ليست متطرفة مثل أفكار الوهابيين ، فلقد برأ أستاذه على أفندى السويدى من أن يكون قد « اسودّ قلبه بعقائد جهلة الوهابية وإنما عقده على العقائد السلفية الأحمدية[١] » .

وأغلب الظن أن أبا الثناء الآلوسى كان يهدف إلى تحقيق مشروع كبير هو توحيد قلوب أهل العراق خاصة والمسلمين عامة ، سنتهم وشيعتهم ، وفض الخلافات بينهم عن طريق التقريب بين المذاهب ، ولعله أراد أن يجعل من نفسه نموذجاً لهذه المحاولة ، ولعل هذا يفسر لنا اتجاهاته في بعض الأحيان نحو المفاهيم الشيعية مع تمسكه بالسلفية ، ويفسر لنا اعتداله إزاء الحركة البابية .

فلقد كانت للحركة البهائية والبابية ضجة كبرى في كل من إيران والعراق خاصة في الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ولقد بعث على محمد (الباب) برسالة إلى أبي الثناء يدعوه فيها إلى الإيمان به[٢] . ولقد كان « الباب» يدرك أنه لوكسب إلى جانبه أبا الثناء الآلوسى لحصل على تأييد معظم أهل العراق له .

حقيقة لم نعثر على رد من جانب أبي الثناء الآلوسى يفند به معتقدات « الباب» وأتباعه ، وأنه تعرض في اعتدال إلى تلك المعتقدات حين كتب عن قرة العين الداعية البابية[٣] . ولكن يبدو أنه أعطى لخصومه سلاحاً قوياً لمحاربته به عندما أفسح مكاناً لكاظم الرشتى في مقدمة كتابه « روح المعاني» ليكتب فيه تقريظاً كان بأسلوب الفكر الشيعى بله الفكر البابي [٤] .

وجاء هذا كله في وقت كانت فيه الظروف مواتية لأعداد أبي الثناء الآلوسى للوشاية به لدى المسئولين العثمانيين سواء في بغداد أو في الآستانة . فلقد كثر

---

(١) غرائب الاغتراب : ص ١٦

(٢) محمد مهدى : مفتاح باب الأبواب : مصر ١٩٢٢ : ص ٣٠٢ ــ ٣٠٨

(٣) عبد الحسين اداراه : الكواكب الدرية فى مآثر البهائية . ترجمه من الفارسية الى العربية أحمد فائق . جـ ١ : ص ١١٥

(٤) انظر مقدمة روح المعانى : جـ ١ : ص ٧ ــ ٨

حساده بسبب ما حصل عليه من مكانة وشهرة ، ثم إن شعبية أبي الثناء الآلوسى وسيطه كان قد بلغ درجة كبيرة أثارت مخاوف السلطات العثمانية منه . وكان من عادة السلطات التركية العثمانية الحاكمة أن تمنع من ظهور زعامات دينية أو سياسية يمكن أن تشكل يوماً ما جبهة داخلية قوية تستطيع أن تناوئ السلطات العثمانية . ولقد كانت للحكومة العثمانية خبرات طويلة ومريرة مع رجال الدين الذين أثاروا أزمات طاحنة في وجه الدولة العثمانية . وما ترتب عن الحركة الوهابية ليس ببعيد . هذا إلى أن سياسة الحكومة العثمانية — بعد أزمة التوسع المصرى في المشرق العربي — اتجهت إلى إحلال البيروقراطية التركية محل نظم الحكم القديمة التى كانت تعتمد إلى حد كبير على تعاون العلماء والأدباء مع الوالى . أو بمعنى آخر أن الحكم البيروقراطى التركى الجديد لم يكن في مسيس الحاجة إلى أولئك العلماء والأدباء ، ومن ثم كان ارتفاع نجم أبي الثناء الآلوسى في العراق وخارجه على غير هوى السلطات العثمانية . وهكذا كانت كل الظروف مهيأة لأن يوجه محمد نجيب باشا والى العراق الجديد (١٨٤٢–١٨٤٧) ضربات متتالية لأبي الثناء الآلوسى .

والملاحظ أن محمد نجيب باشا هذا جاء إلى العراق لينفذ سياسة الباب العالى الهادفة إلى تقوية قبضة الأتراك العثمانيين على مختلف ولايات الدولة والقضاء على الزعامات المحلية التى تهدد الوجود العثماني في المنطقة . ولقد نفذ نجيب باشا هذا سلسلة من مؤامرات الاغتيال لعدد من زعماء العراق من عرب وأكراد . فلقد دبر مؤامرة أدت إلى مصرع صفوق شيخ عشائر شمر[١] ودبر أخرى أدت إلى مصرع سليمان الغنام شيخ عشيرة العقيل[٢] ، وانقض على كربلاء[٣] انقضاضاً دموياً وطارد اتباع « الباب » في العراق[٤] .

---

(١) H. Ross : Letters from the East (Eduted by his Wife) London 1902 pp. 49-50.

(٢) Taylor to Secret Committee : November 24, -842 F. O. 195/204 & Political and Secret Department Records, Letters from the Political Agent at Bagdad .Vol. 13 pp. 115-117.

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : جـ ٧ : ص ٦٤ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه : ص ٧٢ وما بعدها .

كان أبو الثناء الآلوسى من أولئك الذين عدّهم محمد نجيب باشا خطراً على الحكم العثماني في العراق . فناصبه العداء منذ البداية ، فكان طبيعياً أن ينتهز أعداء ومنافسو أبي الثناء الآلوسى هذه الفرصة لإبعاده عن مناصب ورواتب يطمعون هم فيها . فاتّهموا أبا الثناء الآلوسى بأنه يدّبر « فتنة خرقاء »[١] . وكان مثل هذا القول كفيل بأن يثير والى بغداد نجيب باشا الذى كان مستعداً لأن يستمع إلى مثل هذه الوشايات في أبي الثناء الآلوسى . هذا إلى أن ذلك الاتهام لرجل في مكانة الآلوسى كفيل بأن يشغل بال الحكام . وكان أمام نجيب باشا أمراً من اثنين :

١ ــ أما أن يحدّ من نشاط أبي الثناء قليلاً وفي هدوء حتى لا تثار أزمة .

٢ ــ وإما أن يوجه إليه ضربات قاسيات تقضى على مكانته .

ولقد اختار نجيب باشا الطريق القاسى الثاني . وأغلب الظن أن الذى شجع نجيب باشا على ذلك أن أبا الثناء الآلوسى لم تكن له عصبية قوية تذود عنه عند الشدائد ، فإن سياسة الاعتدال التى سلكها أبو الثناء الآلوسى كانت تكسبه تقدير عقلاء القوم وكبرائهم ، ولكنها لا تمكنه من تشكيل جبهة داخلية تقف وراءه . ولهذا كان الأمر أمام نجيب باشا سهلاً ميسراً . فبدأ بآن عزله من منصب الإفتاء ، وتم ذلك دون ضجة ما ، بل أن أبا الثناء الآلوسى نفسه رحب بتخليه عن ذلك المنصب حتى يتفرغ لإتمام تفسيره الكبير « روح المعاني »[٢] . ولكن محمد نجيب لم يكتف بتلك الخطوة وإنما أصر على التضييق على أبي الثناء الآلوسى إلى أقصى درجة ممكنة . فجرده من جميع وظائفه وأبعده عن جميع الأوقاف التى كانت تحت إدارته والتى كانت تدرُّ عليه دخلاً وفيراً ، بل سلبه من الموارد التى يمكن أن تكفل له قوته وقوت أسرته اليومى . ويصف لنا أبو الثناء شدة العوز الذى وقع فريسة له قائلاً :

---

(١) محمد مهدى البصير : نهضة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر . مطبعة المعارف ــ بغداد : ص ٢٢٣

(٢) غرائب الاغتراب : ص ٢٤

« فأسبل علىّ بذلك سجف الأحزان وقطع منى بشفرة إعراضه نياط قلبى فصرت عنيئة أثاثي وفويرة كتبى حتى كدت آكل الحصير وأشرب عليه مداد التفسير »[١] .

ونلاحظ أن أبا الثناء الآلوسى — رغم مؤلفاته المتعددة — لم يتعرض بالإسهاب للأسباب التى أدت إلى وقوعه في تلك الأزمة الطاحنة ، وكان إذا تحدث عن تلك الأزمة اتخذ طريق الإبهام والرمز ، وأغلب الظن أنه ما لجأ إلى الإبهام والرمز إلا لخشيته من بطش رجال الدولة العثمانية به ، أو لعله كان يخشى من أن يستغل أعداؤه الموضوع إن عرفت تفاصيله . فلقد كان أعداء أبي الثناء الآلوسى يتسقطون له الهفوات . وكل ما ذكره أبو الثناء الآلوسى عن أسباب اضطهاد السلطات العثمانية الحاكمة له قوله أنهم اتهموه بالربوبية[٢] والملاحظ أن أبا الثناء الآلوسى نفسه اتهم علماء ومدرسى الآستانة بنفس هذه التهمة[٣] . ويبدو أن بعض مدرسى الآستانة وعدد من علماء بغداد حاولوا استخدام أسلوبه في تفسير القرآن الكريم وسيلة للنيل منه[٤] . وأيا كان الأمر فقد كانت التهم الموجهة إلى أبي الثناء الآلوسى من الخطورة لدرجة أنه وجد أن من الخير له عدم ذكرها بالمرة[٥] .

وخلال تلك الأزمة الطاحنة التى كان يعاني منها أبو الثناء ، وردت إليه من الآستانة دعوة لحضور حفل أقامه السلطان العثماني عبد المجيد بمناسبة ختان ولديه . ويفهم من هذا أن سلطات الباب العالى لم تكن على علم بما وقع بين والى بغداد ومفتيها . والحق أنه في تلك الأيام كانت سلطات الولاة لاتزال واسعة ، فيستطيع الوالى أن يعزل مفتى مدينة كبيرة كبغداد دون الحصول على موافقة مسبقة من الباب العالى . ولكن وجد نجيب باشا في وصول هذه الدعوة إلى أبي الثناء الآلوسي صورة من صور التشريف له . أو بمعنى آخر أن السلطان العثمانى يكرم أبا الثناء الآلوسى في الوقت الذى يخفض فيه والى

---

(١) المرجع نفسه : ص ٢٤ — ٢٥
(٢) غرائب الاغتراب : ص ٤٤٠
(٣) غرائب الاغتراب : ص ١٧٣
(٤) المصدر نفسه : ص ١٦٨
(٥) المصدر نفسه : ص ٤٤٠

العراق نجيب باشا من قدره ، ومن ثم رأى نجيب باشا أنه لابد من منع أبي الثناء الآلوسى من السفر إلى الآستانة بوسيلة أو بأخرى .

أوعز نجيب باشا إلى أبي الثناء أن يعتذر عن السفر إلى الآستانة بحجة « بعد الدار مع الاشتغال بالتفسير والقيام بمصالح الوزير »[١] وهدد نجيب باشا أبا الثناء بالبطش به إن لم ينفذ رغبته هذه . ولم يكن في وسع أبي الثناء الآلوسى أن يقاوم هذا الاضطهاد حيث لم تكن لديه القدرة على ذلك فضلا عما عرف به ذلك الوزير من شدة بطش .

آثر أبو الثناء أن يكتب رسالة اعتذار إلى المسئولين في الآستانة ، وبعد أن دبجها سلمها إلى محمد نجيب باشا ليقوم هذا بدوره برفعها إلى الباب العالى حسب القواعد المتعارف عليها حينذاك . وما أن وقعت هذه الرسالة في يد نجيب باشا حتى تحولت إلى سلاح جديد ضد أبي الثناء الآلوسى . فقد بعث محمد نجيب باشا بتلك الرسالة إلى الباب العالى بواسطة « الباليوز الإفرنساوى[٢] »

لقد كان معروفاً في ذلك الوقت أن القناصل الأجانب يعملون على تقويض الدولة العثمانية عن طريق تشجيع الجماعات المعادية للحكم العثماني ، ولهذا كان معنى إرسال تلك المكاتبة على يد القنصل الفرنسى أن أبا الثناء متصل بالقناصل الأجانب متعامل معهم وبالتالى يمكن القول عنه أنه يعمل ضد الدولة العثمانية والسلطان العثماني .

ولقد كانت المؤامرة محبوكة فقد أصابت أبا الثناء في الصميم وغيرت عليه قلوب السلطات العثمانية في الآستانة ، وضاقت الحلقة على أبي الثناء الآلوسى ولم يعد قادراً على أن يعيش مرتاح البال بسبب غضبة السلطات الحاكمة عليه وبسبب الفقر المدقع الذى كان يعانيه . وفكر أبو الثناء الآلوسى في طريقة يخلص بها نفسه من هذه الأزمة ويبرىء ساحته أمام المسئولين ، ووجد أن من الخير له أن يذهب بنفسه إلى الآستانة ليعرض هناك قضية وليقدم في نفس الوقت إلى السلطان العثماني موسوعته الكبرى « روح المعاني »

---

(١) المصدر نفسه : ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٥ والباليوز هو القنصل .

التي قضى عدة سنوات في تأليفها . فشد الرحال إلى الآستانة في أواخر حكم نجيب في بغداد[١] .

بعد أن استقر أبو الثناء في الآستانة حاول أن يقابل كبار المسئولين وأن يتشرف بمقابلة السلطان العثماني ، ولكن كانت معظم مقابلاته واجتماعاته بشيخ الإسلام عارف حكمت الذى أكرم وفادته وطيب خاطره ، ولكن شيخ الإسلام كان يرى أن أبا الثناء الآلوسى لم يعد جديراً — من وجهة نظر الحكومة العثمانية — بمنصب الإفتاء فلم يفكر في إعادته إلى ذلك المنصب وعرض عليه واحداً من ثلاثة :

١ — أن يبقى في الآستانة فيحصل على معاش مناسب .

٢ — أن يحصل على منصب قاضى أرضروم وينال من وراء ذلك ثلاثين ألف قرش رومية .

٣ — أن يعود إلى بغداد على أن يحصل على نصف وقف مرجان فقط .

وكان طبيعياً أن يرفض أبو الثناء الآلوسى فكرة الإقامة في الآستانة ، فهو بذلك سيضيع في زحمة مدرسى وعلماء الآستانة من الأتراك الذين لن يتركوا له فرصة أخرى للظهور والتفوق ، ومعنى هذا أنه سيصبح كمن يعيش في قفص من ذهب في الآستانة . هذا إلى أن حنين أبي الثناء للعراق كان قوياً جداً ولم يكن يستطيع أن يفارقه إلا لفترات محدودة جداً ، حتى ولو كانت حياته في العراق أشد عليه من حياته خارجه . وكان الرجل يفضل أن يحصل على وقف بكامله دون أن يشاركه فيه أحد حتى لا تثار حوله الأزمات . ولكن المسئولين في الآستانة أبوا أن يحققوا رغبته فقبل قضاء أرضروم على مضض[٢]

وخلال وجوده في الآستانة تكشفت لنا كوامن عواطفه الوطنية العربية نتيجة لأنه لمس عن قرب مدى ما كان في قلوب علماء وأدباء ومدرسى

---

(١) الف ابو الثناء كتابين عن رحلة الذهاب الى الآستانة والاياب منها هما نشوة الشمول فى السفر الى استانبول بغداد ١٢٩١ هـ . ونشوة المرام فى العود من مدينة السلام . بغداد ١٢٩٣ هـ .

(٢) غرائب الاغتراب : ١٢٧ — ١٢٨ ، ١٣١ — ١٣٢

الآستانة من كراهية دفينة للعرب بصفة عامة ، فهو يقول عن مدرسي الآستانة أنهم :

« في غاية الإستكبار والأنانية ، ولولا خوف قطع وظائفهم لأعلنوا بدعوى الربوبية ... وقد استمعت كثيراً منهم فرأيت سدا وعظهم ولحمته هذيان ، وعلى ذلك تجمع لهم الدراهم »[١] ويقول رأيت معظم مشايخ إسلامبول يبيعون المنصب للمعزول »[٢] ويقول « وعلماء القسطنطينية أجهل الناس بالفنون الأدبية ... وأما الشعر العربي فطريقه بينهم بالكلية غير مسلوك ولا بدع فالعربي بين الترك من قديم متروك ... »[٣] .

وقد أبدى أبو الثناء الآلوسى تألمه من أن أولئك العلماء الأتراك — الذين لا يقفون على نفس المستوى العلمى للعلماء العرب — يتمتعون بالمرتبات العالية. ويبدو أن هؤلاء العلماء الأتراك عملوا على أن يحتكروا لأنفسهم المناصب والمرتبات بحيث لا يشاركهم فيها بقية علماء الدولة ، وبوجه خاص العرب . ويرى الآلوسى أن مجرد كون العالم عربي كفيل بأن يجلب على نفسه نقمة علماء الآستانة من الأتراك فيقول في هذا الصدد :

« إنهم لم يزالوا يجمعون حجر الباطل ويرمون به بريئاً ، ويبغضون لا در درهم كل من يرد على بلدهم من الأفاضل ولو كان نبياً ، وإن رؤية العالم العربي في أعينهم الموت الأحمر ، وان صحبته ولو مقدار ذرة في اعتقادهم الذنب الأكبر والشرك الذى لا يغفر ... فلا تقرب مأواهم ... وابعد عنهم ما استطعت ، وإياك وإياهم ، وعليك إن أردت مصاحبة بمصاحبة الدوام ، فإنك تقوم وتقعد معهم في أمان الله عز وجل والسلام »[٤] .

---

(١) المصدر السابق : ١٧٣
(٢) المصدر السابق : ١٨٨
(٣) المصدر نفسه : ٣١٣
(٤) المصدر نفسه : ١٦٩

إن النقد الشديد من جانب أبي الثناء الآلوسى لعلماء ومدرسى الآستانة من الأتراك ، والمؤامرات التى حاكها المدرسون الأتراك له في الآستانة ، هى في اعتقادنا الإرهاصات الأولى للصدام الفكرى بين العرب والترك . فلقد كان أساس وجود العرب في الدولة العثمانية هو المشاركة على قدم المساواة مع الأتراك في هذه الدولة الإسلامية القائمة على أساس الذود عن حياض المسلمين . ولكن في القرن التاسع عشر فقد العثمانيون قدرتهم على الحفاظ على أجزاء هامة من الوطن العربي في وجه العدوان الإستعمارى الأوربي . كذلك عجزت قوات السلطان العثماني عن الصمود أمام جيش مصر ولم تقف القوات العثمانية أمام القوات المصرية إلا بمساعدة القوى الأوربية الكبرى ، ورغم كل هذا أصبح واضحاً أن الأتراك أصبحوا أكثر احتكاراً لمناصب الحكم والإدارة ، وزاد الأتراك في منع العرب من الوصول إلى المناصب العليا .

تجلت تلك الروح العربية المعادية للترك في المراسلات المتبادلة بين كل من أبي الثناء الآلوسى وعبد الغفار الأخرس وعبد الغنى جميل . فأثناء وجود أبي الثناء الآلوسى في الآستانة جاءته من بغداد أنباء أثارت فيه كوامن الهموم . وعندما أراد أبو الثناء أن يعبر عما كان يجيش في نفسه لجأ إلى الشعر رغم أنه لم يكن متضلعاً في النظم . ولقد صرح هو بذلك حيث أشار إلى أن قصيدته التى أولها [١] :

أبيت ولى وجد حرارته تعلو ودمع له في عارضى عارض هطل

قليل منها من عنده وأكثرها من شعر جدّه . وسواء أكانت الأبيات — التى سنستشهد بها على اتجاهاته الوطنية العربية من نظمه هو أو من نظم جده فإنها على أى حال تعبر عن وجهة نظره .

جاء في تلك القصيدة سالفة الذكر عدة أبيات تكشف عن دعوته إلى اليقظة العربية بوضوح فيقول في بغداد :

فهل روضها يخضر بعد ذبولها ويهمى على أوراقها الوبل والطل
وهل أنا في يوم العروبة قاصد لحضرة باز شأنه الفصل والوصل

---

(١) غرائب الاغتراب : ٢١٠ .

وعندما وصلت هذه القصيدة إلى العراق تناولها عبد الغنى جميل بكل جوارحه ، حيث أنها أثارت فيه روح العروبة حين قام بالرد على تلك القصيدة بقصيدة مليئة بالبكاء على بغداد التى اقفرت من أهلها والتى ساد فيها من ليس منها[١] . إلا أن عبد الغفار الأخرس في تخميسه لشعر عبد الغنى جميل كان أكثر وضوحاً من حيث الكشف عن تلك التيارات الوطنية العربية . وكان الأخرس في الحقيقة يعبر لا عما كان يحيش في صدره فقط بل كذلك عما كان يعتمل في صدر كل من عبد الغنى جميل وأبي الثناء الآلوسى . وقد ردد في شعره الإشارة إلى (معد) ،و (يعرب) ، و (عامر) ، وهو خلال ذلك يمجد شجاعة العرب في الحرب مذكراً بأيامهم البطولية الأولى ، ونجده في نفس الوقت حزيناً كل الحزن لأنه مضطر إلى أن يعيش تحت حكم جيل (بافث) ، والمعروف أن يافث كان أبو الترك والعجم بصفة عامة[٢] .

---

(١) يقول عبد الغنى جميل فى ذلك :

لهفى على بغداد من بلدة ... قد عشعش العز بها ثم طار

. . . . . .

واليوم قد حل بها من ترى ... فانفر والا بيديك الخيار

. . . . . .

والكرخ قد اقفر من أهله ... من بعد ما كانوا كورد النهار

. . . . . .

أيا شهاب الدين يا سيدى ... قد هجم النذل علينا وغار

. . . . . .

بفدادكم أخنى عليها الذى ... من أسره لا يستطاع الفرار

وقوله :

الا مبلغ عنى سراة بنى الوغى ... واقيال عرب كيف صبرهم عنا

وقوله :

فأين سراة بنى هاشم ... ومن لعظام الأعادى هشم

(٢) جاء فى أشعار الأخرس ما يؤكد تلك الاتجاهات الوطنية العربية ومنها قوله :

فكيف بها أن سادها غير جنسها ... ويسطو على آسادها ابن عرسها

ويرقى على هام السماك ضئيلها

. . . . . =

إن هذه الدعوات الصريحة إلى حث أقيال العرب على النهوض في وجه جيل يافث رد فعل طبيعي لاحتكار الأتراك لمجالات التفوق في الحكم والإدارة والأدب . حقيقة لا ترقى تلك الإتجاهات إلى فكرة الإستقلال الكامل عن الدولة العثمانية حفاظاً على وحدة دولة الخلافة . ولكن أفاد العرب والعروبة من تلك الإتجاهات الوطنية العربية المبكرة فوائد كبرى .

حيث أن الأتراك تحولوا في أوائل القرن العشرين من مجرد محتكرين للحكم والإدارة في المشرق العربي إلى قوميين يعملون على صبغ كل الدولة العثمانية بالصبغة التركية ، أو بمعنى آخر كان على العرب أن يغادروا حضارتهم ولغتهم وأن يصبحوا أتراكاً إذا أرادوا التمتع بحق المواطنة في الدولة التركية الجديدة إلا أن سياسة التتريك هذه جاءت في وقت كانت فيه الآداب العربية في العراق قد نهضت وارتقت إلى الدرجة التي لا يمكن أن تتغلب عليها اللغة التركية وآدابها وتلك هي القيمة الكبرى لتلك البدايات المبكرة للحركة العربية في العراق .

= فيا ليت شعري هل أراني بموكب وحولي رجال من معد ويعرب
مصاليت للحـــرب العوان قيولها

. . . . . .
لها السبق في ميدان كل مخاطر بكل نزاري على الموت صـــابر
عوادي الى أقصى على ومفاخر عليها رجال من معـــد وعامر
مطاعين في الهيجـــا كريم قتيلهـــا

. . . . . .
فلم لا نعـــاني حزننا واكتئابنا كفى حـــزنا انا نعـــاني ركابنا
الى معشر من جيـــل يافث جيلها

انظر غرائب الاغتراب : ص ٢١٨ ـ ٢٢٤

المراجـــع

(أ) الوثائق العربية والتركية :

دار الوثائق الأهلية بعابدين :

محفظة ٢١٣ عابدين .

محفظة ٢٣٩ عابدين .

(ب) الوثائق الأوربية :

— F. O. 78/210 - 211.

— F. O. 195/204.

— India Office Records Factory Records Persia and Persian Gulf. Vol. 49.

— India Office Records, Political and Secret Department Records. Vol. 13.

المؤلفات العربية

ـ الأثرى (محمد بهجة) : أعلام العراق . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٥ هـ .

ـ الآلوسى (محمود) : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . القاهرة .

ـ الآلوسى (محمود) : الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب

ـ الآلوسى (محمود) : نزهة الألباب وغرائب الإغ اب في الذهاب والإقامة .

والإقامة والإياب . بغداد ١٣١٧ هـ .

ـ الآلوسى (محمود) : نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول بغداد ١٢٩١ هـ .

ـ الآلوسى (محمود) : نشوة المدام في العود من مدينة السلام . بغداد ١٢٩٣ هـ .

— أواراه (عبد الحسين) : الكواكب الدرية في مآثر البهائية ترجمة أحمد فايق .

— الأخرس (عبد الغفار) ق الطراز الأنفس : استانبول ١٣٠٤ هـ .

— البصير (محمد مهدى) ق نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر مطبعة المعارف . بغداد .

— جودت باشا : تاريخ جودت. الجزء الثامن استامبول ١٢٩١هـ.

— ريج (ك. ج.) : رحلة ريج في العراق ١٨٢٠ . ترجمة بهاء الدين نورى . بغداد .

— الشواف (عبد الفتاح) : حديقة الورود . مخطوطة في جزءين (إحداهما في المكتبة التيمورية والثاني في مكتبة طلعت بدار الكتب) .

— العزاوى (عباس) : تاريخ العراق بين احتلالين . بغداد ١٩٥٥ الجزء السابع .

— العمرى (عبد الباقي) : الترياق الفاروقي . طبعة عثمان الموصلى ١٣١٦

— الكوراني (على سيدو) : من عمان إلى العمادية . أو جولة في كردستان الجنوبية . مطبعة السعادة . مصر ١٩٣٩

— مهدى (محمد) : مفتاح باب الأبواب . مصر ١٩٢٢

— نوار (عبد العزيز) : داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ . دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٨

— نو ر (عبد العزيز) : المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨

— نوار (عبد العزيز) : تاريخ العراق الحديث ١٨٣١ — ١٨٧٢ . تحت الطبع .

المؤلفات الأوربية

— **J. Lorimer :**
Gazetter of the Persian Gul. Supermitendent Government Printing India 1915.

— **H. Ross :**
Letters from the East (Edited by his Wife) London 1902.